الدّين وإعادة التشكّل في الزّمن الكوفيدي.

طوفوا حول الإنسانيّة

دكتورة منية العلمي

لطالما تحدّثنا في مناسبات عديدة ومتنّوعة، عن ضرورة الانتقال من معاينة النصّوص الدينيّة من زاوية حرفيّة ظاهراتيّة، نحو زاوية مقاصديّة تبلغ روح الأحكام وجوهر الدّين، وعلى رأي الجويني في برهانه:"ومن لم يتفطن لوقوع المقاصد في الأوامر والنّواهي فليس على بصيرة في وضع الشّريعة" .

تكّلمنا، وكتبنا، و حاضرنا، حول هذه الرّؤية المنهجيّة في عديد المناسبات، ودافعنا عن الحاجة الماسّة لتوّخي هذا المنهج الدّلالي في عمليّة القراءة، و الفهم، والتبليغ، وكذلك الإرشاد و التّوجيه. ولقد كّلفنا ذلك ما كّلفنا من عنف في بعض ردود الأفعال من أصحاب الفكر المحنّط، على مستوى شخصيّ، وحتّى على مستوى ثقافيّ واجتماعيّ، كلّ ذلك حدث ضمن إطار عامّ متمّسك بالحرفيّات والنّقول، يخشى المواجهة المنهجيّة، كما يخشى الخروج بمفاهيم جديدة غير التّي يباركها العامّة ويعتقد فيها قياديّيهم و رموزهم الدينيّة.

واليوم، ومع ما يعيشه العالم جرّاء تفشي فيروس كوفيد-19، ومن خلال متابعتنا لأغلب ردود الأفعال الفرديّة والجماعيّة والمنتمية لطبقات اجتماعيّة وثقافيّة متنّوعة، لفت نظرنا تحصّن شقّ كبير من التونسيين بالمقاومة الروحيّة / الدينيّة، والتّي لجأ إليها غالبيّة البشر في مختلف أنحاء المعمورة كردّ فعل فطريّ في مواجهة هذه الجائحة. فكان أن لاحظنا إجماعا منهم على تثمين البعد الرّوحي والإنساني العميق للدّين، مرّكزين في تفاعلاتهم تلك، على مفاهيم إيتيقيّة، روحيّة، في غياب تامّ للاهتمام بمفاهيم مستمدّة من سياقات محدودة، منتصرة لمصلحة فرديّة، أو خادمة لجهة على حساب أخرى، أو مغيّبة لجنس أو نوع على حساب آخر... ولعلّ ذلك ما مثّل دافعا لنا لصياغة هذا المقال. فلقد لاحظنا في إطار متابعتنا تلك، أنّ ما عجزنا عن تبليغه –ربّما– في أشغالنا العلميّة، نجح الفيروس اللّعين في دفع المجموعات البشريّة نحو الوعي به.

كان منهجنا نظريّا، و كان منهج الفيروس تطبيقيّا، مباشرا، شاملا، غير معنيّ بالتّصنيفات و لا بالتّقسيمات، و لا بالطبقات، ولا بالأنساب، و لا بغيرها. نجح الفيروس حيث فشل الأكاديميّون، والمثقفون والدّعاة المستنيرون، في إعادة تشكيل الوعي بالمسألة الدينيّة وفق تراتيب قيميَة، إنسانيَة، عالميَة، مستمدَة من التصوَر الإيمانيَ للإنسان وللوجود من حوله، بل والأغرب من ذلك، نجح في إلغاء وظيفة من أقدم الوظائف على وجه الأرض، وهي وظيفة الوساطة بين العبد وخالقه، فلا منابر، ولا دعاة، ولا مناسك، ولا شعائر منعت من تحقيق التّواصل المباشر بين الله و الإنسان.

فمثلا لاحظنا أنّ الجامع المانع بين مختلف التّدوينات ذات المحتوى الدّيني على صفحات التّواصل الاجتماعي، والصّادرة عن روّاد له من الجنسين، تلقوا تكوينا علميّا مختلفا، ومن شرائح عمريّة مختلفة، ومن مناطق جغرافيّة متنوّعة، أنّ اللجوء كان في تلك التّدوينات والنشريّات، للدّعاء في المرتبة الأولى، كشكل مباشر للعلاقة مع الله ، ثمّ إلى الأناشيد الصوفيّة، وأيضا إلى الآيات القرآنيّة ذات البعد القيميّ الأخلاقي و الإنساني، أو للأحاديث النبويّة الدّاعية إلى الفضائل وإلى قيم التّراحم، والتّكافل، والإيثار، والحاثّة كذلك على خلق الإحسان، و التّضحية والعطاء، حتّى أضحت تلك الوسائط التواصليّة الإفتراضيّة، فضاء لعائلة روحيّة واحدة ملتفة حول المشترك الدّيني الإنساني.

لقد نجحت هذه الأزمة العالميّة في إحياء و تعزيز المنهج المقاصدي في التّعامل مع النّصوص الدينيّة ، هذا المنهج الذي أثبت جدارته في كلّ مرّة على الالتحام بالواقع البشريّ بتقلباته وبأحواله المختلفة ، فهذا المنهج هو من يمتلك القدرة على تفعيل آليّة السياق وعلى مراعاة الأحوال، وعلى اعتبار المصلحة.

فمن جانب السّياق، لعلّ فيما أورده الزّركشي في محيطه، من قول الشيخ عز الدّين بن عبد السّلام، أفضل تبيان لأهميّته في استجلاء المراد الإلهي، إذ يقول:"السّياق يُرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات، وكلّ ذلك بعرف الاستعمال.

فالسّياق، وفي كلّ زمان، لا ينفّك معبّرا عن بيئة لغويّة وتداوليّة ترعى مجموع العناصر المعرفيّة التي يقدمها النّصّ للقارئ، فهو آليّة مفاهيميّة، تعتبر غرضا مرَوُمًا ومستعجلا في ظلّ ما نشهده في واقعنا اليوم، من لُبس في المعنى وخلط في الأحكام، نتيجة عدم اعتباره و تجاهله، أو توظيفه بما لا يفيد تجديد المعاني و الدّلالات، ممّا أدّى إلى شبهات طالت القرآن الكريم، من خلال قراءات مغلوطة، تتعمّد هدم المباني القرآنيّة القيميّة، والأخلاقيّة، والتشريعيّة وحتى العباديّة.

وأمّا من جانب المصلحة، والتي يرد في تعريفها– وفق الغزالي– أنّها المحافظة على مقصود الشّرع، أو هي المنفعة التي قصدها الشّارع الحكيم لعباده– وفق البوطي– فهي محّل إجماع العلماء على أهميّة مراعاتها في التّشريعات الإسلاميّة، على اعتبار أنّها من أبرز القواعد المقاصديّة التي ذكرها ابن عاشور كقاعدة كليّة في الشّريعة، دفعت إلى تداول القول بأنّ الشّريعة كلّها مصالح، فالشّارع الحكيم ينحو نحو تغليب المصلحة في جميع الأوامر و الخلق ، ذلك ما أكّده القرافي في فروقه حين وصف مراعاة المصلحة بأنها عادة الله تعالى في الخلق وفي وضع التشريعات.

ولن نتوّسع أكثر في تقديم هذه التّوضيحات و التّعريفات، على اعتبار طبيعة المقال التّي لا نرغب في أن تكون أكاديميّة، غير أنّنا أوردنا تلك التّفاصيل، لإبراز الاستعداد الطبيعي للفرد المتديّن للتّعامل و للتّفاعل مع النصّ، عبر وسائط تحّقق الفهم الإنساني العميق و الشّامل للوضع البشري في كلّ حالاته ، ذلك ما سجّلناه خلال ملاحظة هذه الأزمة الكارثيّة، و تداعياتها الروحيّة والنفسيّة على المتديّنين، و حتّى على غيرهم ممّن انخرطوا في قدّاس عالميّ يجسّم المشترك الدّيني، و يُفعّل مقوّماته و خصائصه، في ظرف استثنائي استشعر فيه العبد عجزه، وضعفه، وحاجته الماسّة لرحمة الذّات العليّة، فهو وفق الآية الكريمة "ربّ العالمين الرحمان الرّحيم".

ولن يتمّ ذلك دون تعميق النّظر في علم المقاصد ذاته، بما يوّفره من فهم خصب للدّين. ولا يخفى أنّ الشاطبي 790هـ قد دّشن توسيع الاهتمام بهذا العلم في موافقاته، حيث نقل النصّ القرآني من خلاله، من وضع لفظيّ/ لغوي –أسّس له الأصوليّون من قبله– إلى وضع جامع/ كليّ لا يستقيم بلوغ غائيّة الوحي و التنزيل إلاّ من خلاله.

فهذا المنهج هو وحده من يمتلك القدرة على تجاوز الفهم التقليدي الذي تضيق به أحوال النّاس، ويمّكن من استجلاء المعاني الممتدّة غير المسّطحة، و الجامع بين هموم البشرية أينما كانت، و كيفما كانت، كما هو حالها اليوم نتيجة تفّشي الوباء اللعين.

فأن تكون مسلما أو متديّنا على وجه العموم، يعني أن تبلغ بفهمك للدّين، المنهج الإنساني العميق، عندما تنتصر لعمقه، ولجوهره، وعندما تتّدد بضيق الفهم وتحجّره.

نجح كوفيد–19 في إعادة تشكيل المسألة الدينيّة والوعي بها، في عمقها، وفي وسائطها، و في أدواتها، نجح في زعزعة المناهج الموروثة ، وفي خلق علائقية جديدة مع النصّوص تتوسّل المبادرة الفرديّة، وتعدم المسّلمات التفسيريّة الموروثة المغذيّة للعصبيّة، نحو قداسة للنصّ وحده بعيدة عن توسّل مباركة "رجال

الدّين"، نجحت في عودة فرديّة للأصل، للقراءة بأدوات الرّهبة و الأمل، بأدوات الكرونا التي دمرت النزعة الفردية و جعلت البشر يؤمون بان خلاصهم واحد.

أثبتت أزمة كرونا اليوم، أن لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة، فلا معبد، ولا حرّاس له، أمام قيمة الحياة ، كما دفعت هذه المحنة بمعظم المتديّنين إلى استحضار فعل التّأمل، و التدّبر والتفّكر في الكون، وفي ملكوت الله، وقدرته وجبروته، متوسّلين لطفه تعالى ورحمته، بدافع ذاتي فطري بعيدا عن كلّ أشكال الوسائط التقليديّة. ما يجعلنا نؤكد مرة أخرى على ضرورة تفعيل القراءة المقاصديّة للقرآن الكريم، وعلى الالتفاف حول النصّ برؤية غائيّة، استشرافيّة لمضامينه ولأحكامه، من دون تقديس لموروث أنتجه أصحابه كفكر بشري مداره حول النصّ، فالفكر الإسلاميّ بتقديسه لذلك الموروث يغلق على نفسه منافذ الإبداع، ويعطّل فعل القراءة للمقدّس الأصل:القرآن الكريم، إنّ ذلك الفكر الذي شُيّدت له المعابد، وتكّون في حرمه كهنوت جديد، أثبت اليوم وفي ظل هذه الجائحة العالميّة، إفلاسه على مستوى إدارة الأزمة، فقد يظهر أصحابه على وسائل التّواصل السّمعي البصري، و وسائل التواصل الاجتماعي بإطلالاتهم البهيّة، داعين لجهاد مغشوش في العراق وفي سوريا، أو محللين لما يسّمى بجهاد النكاح بلا حياء، و لا ضمير إنساني، أو دينيّ، أو أخلاقيّ، و قد يظهروا كذلك مقدّمين فتوى حول رضاع الكبير، أو مبتكرين لنوع جديد من أنواع الزّواج، هذا دون الحديث عن إبداعاتهم الخالدة في شأن النّساء، وحتّى في شأن الكورونا، حيث تبيّن لأحدهم مثلا، أنّ هذا الوباء ماهو إلاّ عقاب إلاهيّ لتونس جرّاء منعها لوضع النّقاب.

غير أنّ هؤلاء لم ولن يظهروا، لدفع النّاس الذين يصنعون أمجادهم، نحو تقديم مدّخراتهم لأجل العمرة و الحجّ للإسهام في إنقاذ الإنسانيّة–ونحن و العالم في ظروف استثنائية ألغت فيها السّعودية الحجّ لهذه السنة كما ألغت العمرة –لم يظهروا لحثّ الملايين من أتباعهم ومريديهم لدفع مدّخراتهم تلك لأجل لإنشاء مراكز بحث علميّ، أو لبعث مخابر تحاليل، أو لتجهيز المستشفيات أو لبناء غيرها بالمناطق التّي لا توجد بها أدنى مؤسسة صحيّة ، و إقناعهم بأنّ صنيعهم ذاك يحتسب عند الله صدقة جارية تدخلهم جنّتي الدّنيا والآخرة فضلا عن إدخالهم التّاريخ–علما وأنّ تكاليف الحجّ بلغت في السّنة الفارطة وفق وزارة الشؤون الدينيّة في تونس، ما يناهز 14000دت، وأنّ عدد الحجاج ناهز11000حاجّا– عوضا عن بناء مسجد يوجد غيره على بعد مئات من الأمتار، ففي تونس والحمد لله مثلا لدينا أكثر من 5000مسجد و جامع.

لم يظهروا ليذّكروهم بآيات من قبيل "..ومن أحياها فكأنّما أحيا النّاس جميعا.."، أو ليشرحوا لأتباعهم و مريديهم، دلالات طالعة القرآن" اقـرأ".

ممّا يؤكّد أنّ كوفيد-19 من ضمن ما نجح فيه، هو تعريته لعديد الحقائق وفي مجالات متعدّدة، سياسيّة واجتماعيّة و غيرها، ومنها المجال الدّيني، وتحديدا مجال المتعاطين مع القرآن الكريم، و السنّة الشريفة، و الموروث الإسلامي عموما، من الدّعاة و المفتين ومن يعتبرون أنفسهم " رجال دين" يؤثرون في شرائح واسعة من المجتمعات الإسلاميّة.

إنّ الفيروس اللعين قد صنع من حيث لا يدري، المتديّن الكوني، والمسلم المقاصدي، كما شّهر بشيوخ الفتنة و الاقتتال، صانعي ثقافة الموت ممّن حقّقوا أمجادهم على حساب ثقافة الحياة ومعاني الإنسانية، معدمين كلّ أنفاس التحرّر المبثوثة في القرآن الكريم، ذلك أنّ الدّين لا يمكن أن يكون إلاّ إكسير حياة.